

# الإرهاب (والتطرف والعنف والغلو الديني) في صفوف الشباب : الأسباب والمعالجة

الدكتور كمال عمران<sup>(\*)</sup>

## المدخل

1. إن الأسباب المفسرة لظهور الإرهاب متعددة متداخلة، ويعسر الوقوف المتأنى عندها بالشكل العلمي، ويحتاج الباحث إلى كثير من الوقت ومن المدونات والمصادر والمراجع ليتدبر أمر الإرهاب. ويزيد الأمر تعقيداً نظراً لغياب العزيمة الأمامية على تعريف الإرهاب بالأسباب الموضوعية اللازمة، وذلك جراء الاختلاف في المقاصد وفي الغايات، فضلاً عن المصالح السياسية المتناهية.

2. كثرت في السنوات الأخيرة الدعوات إلى النظر في مسائل الإرهاب، وتعددت الملتقيات وازدهرت الندوات والملتقيات في الغرض نفسه، إلا أن الافتراق في المناهج وفي الأغراض جعل جلّ الأعمال تكتسي صبغة شكلية، ولم تشذ العزائم على صون الجهود لتتأزر حتى تمكن الباحثين من مدونات علمية صالحة للدراسة، ومنها على وجه الخصوص ذات الطابع الاستشراقي.

3. هل خضعت الدراسات عن الشباب - بصفة خاصة - لمنطق الاستبيان والرصد والكشوفات المؤهلة للدراسات العلمية على القواعد الرقمية الآمنة والمخولة للوصول إلى النتائج العلمية التي تأمن من كل لبس ومن كل لوثة معرفية؟ أليست الحاجة إلى الأعمال المخبرية عن الشباب وعن شبهات الإرهاب حاجة تلزم البحث العلمي وتزيده مصداقية في مواضيع محفوفة بالشبهات؟

4. هل يمكن أن نتعامل مع المصطلحات المتجاورة على أساس صلة الرحم المعنوية المغذية للتحليل المتجانس، وكأن المصطلح يمكن أن يعوض بالآخر

(\*) أستاذ الحضارة العربية الإسلامية - كلية الآداب والإنسانيات، - جامعة منوبة، منوبة.

دونما حرج؟ أم أن بين المصطلحات من الفروقات ما يحوج إلى الانتباه إلى ما تحمله الفويرقات من دلالات ذات أهمية بالغة؟ فهل الإرهاب هو التطرف؟ وهل الإرهاب هو العنف؟ وهل الإرهاب هو الغلو الديني؟ أليس في التسوية بين المصطلحات تعمية عن البحث العلمي وتجنب اليقين المنهجي والحياد المعرفي؟.

إن أسباب ظهور الإرهاب كثيرة متعددة، منها ما هو ديني، ومنها ما هو إيديولوجي، ومنها ما هو سياسي، ويتفرع عن أصول الأسباب ظواهر منها السبب الاقتصادي والاجتماعي والثقافي. كما يجدر أن ننبه إلى كون الإرهاب ظاهرة تمس الأديان كلها أو جلها كما تمس المواقف الإيديولوجية والسياسية، فليس الإرهاب سمة موصولة إلى الثقافة الإسلامية بقدر ما هو ملازمة لنسق بشري تلوثه الانحرافات إفراطاً أو تضريطاً. على أننا سنقف عند البعد المتصل بالثقافة الإسلامية عسى أن نبرز الملامح الخطرة التي أفرزها الإرهاب ضد الإسلام والمسلمين. وإن المنطلق الذي نعتد إنما هو كون الإرهاب ظاهرة لصقت بثقافة عدد من المسلمين لصوقاً يزرع الفتنة، ويشوه الإسلام، وينقض ما فيه من القيم الأصيلة، وإن المعالجة تستحث للتنبيه إلى التنافر العميق بين حقيقة الثقافة الإسلامية من جهة وما شابها من التلوث من جهة ثانية.

5. سنؤكد في البحث أن البعد الثقافي يكتسي أهمية بالغة في تحديد أسباب الإرهاب، وسنكتفي بالعنصر الثقافي علنا نسطر الأبعاد المتصلة بالآفة الكبرى الداهمة للبشرية بشتى ألوانها. والثقافة في نظرنا معقودة منهجياً وعملياً على المفهوم الإنساني (الأنثروبولوجي) وقوامها على أنها كل «النشاط المادي والذهني الذي يرثه المرء عن البيئة التي ينشأ فيها»، والثقافة كذلك راجعة إلى البعد البيولوجي المتصل بعلم الهندسة الوراثية، ومقتضاه التوازي بين الخلية البيولوجية والخلية الثقافية، وهو يحيل إلى إمكانات معالجة ذات بال. ويتسنى أن نحدد المضامين من خلال ثنائيات هي التالية:

6. ثنائية خطاب الشيخ/ وخطاب المثقف: وفي هذا العنصر نعالج في البلاد الإسلامية، وخاصة منها التي انتشر فيها الإرهاب، الانتقال في مرجعية التفكير والسلوك لدى الشباب على وجه الخصوص من الأخذ عن العالم الشيخ إلى ما استهوى من خطاب المثقف. ولعلنا في هذا العنصر نبين التضارب في

أذهان المتلقين بين الطريقة الحجاجية التي تتبلور من خلال خطاب الشيخ والطريقة الاستدلالية التي يوهم المثقف بها للإقناع والإشباع. أليس رصد الثقافة المتضاربة إلى حد التناقض إنما هي من الأسباب التي أدت إلى الإرهاب، بمعنى أن المتلقين الذين تتراوح المشكلات لديهم من خطاب ديني مشبع بالعلوم الشرعية من ناحية وخطاب مترع بالحدائث والعلمانية من ناحية ثانية هم معروضون للتشتت الثقافي المؤذن بالغلو في الدين أو المروق عنه؟ ألا يحسن الانتباه إلى هذا النوع من التضارب وبناء ثقافة دينية لدى الشيخ تتشعب بالشرعيات من جانب، وتنهل من العلوم الإنسانية من جانب ثان؟ أليس من الجرأة العلمية المحمودّة أن نكوّن ناشئة تأخذ العلوم الشرعية بمقتضيات المناهج المعرفية المعاصرة؟ ولا يعني هذا البتة الانزلاق إلى التلفيق بقدر ما يعني الإثراء والتطوير حسبما تريده الثوابت الإسلامية؟.

خلاصة هذا العنصر الأول أن للإرهاب نوافذ من داخل الثقافة الإسلامية وأن الشباب بصفة خاصة مقصود بها، وأن التراكم من التخلف الذي جثا على المسلمين لمدة قرون ونقصد التخلف الذهني بالدرجة الأولى هو من الأسباب المعطلة للنهوض نهوضاً يكفل للناشئة المعايير اللازمة لحسن الطلب ولحسن السلوك والاستجابة للهدى النبوي القويم؟ أليس الإرهاب نابعاً من نوعية الثقافة التي يتلقاها النشء، ثم من نمط التعليم الذي يستحصله وهو التعليم القائم على تخريج التلميذ الحفظة وغياب ملامح التلميذ الطلعة؟ وقس على ما ذكرنا ظاهرة التسارع التي داهمت المعرفة البشرية وجعلت الثقافة التقليدية في مواجهة عنيفة تكاد لا تقوى على الخروج منها سالمة. إن الداء إذا كمن في داخل الثقافة الإسلامية جراء التخلف الحضاري الذي عرفه المسلمون اليوم لا يمكن أن يخرج عن التضارب المشط في كثير من البلدان الإسلامية بين نوعين من الثقافة، الأولى موسومة بالتقليدية، والثانية معلومة بالتقدمية، وفي التضارب ما يستدعي النظر عسى أن نبدد أسباب الإرهاب الكبرى.

7. ثنائية التقليد/التجديد : ويراد بالتقليد ما هو في دائرة "العلماء" لا عامة الناس، فهو حسب تعريف الإمام الشوكاني في رسالة له موسومة بـ "القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد" "الأخذ عن الرجال دون حجة أو دليل من القرآن والسنة". أليس للتقليد منهجاً عند "العلماء" دافعاً إلى نشر ثقافة

الإرهاب؟ أليس في العزوف عن الاستدلال أو الحجاج من القرآن والسنة كسراً لنسق رفعت لواءه السنة وألزمت به للوصول إلى الطريقة القويمة؟ أليس في التقليد لدى "العلماء" سبلاً إلى نشر ثقافة لا تتشعب إلا بالأقوال البشرية وهي تعرض عن العود إلى القرآن والسنة؟ أليس في هذه الطريقة خلود إلى ما يتعارض مع التطور؟ وهل من تطور مقبول لا يخضع للقرآن والسنة؟ وكيف يمكن التعامل مع عصر شديد التغيرات ولا سبيل فيه إلى الاستمسك بالعروة الوثقى وذاك ما تفرضه ثقافة التقليد؟.

8. أليس في التجديد، وهو اصطلاحاً العود إلى الأصل لاستصلاح مفاصل يفرضها العصر، منهج إسلامي لمعالجة أسباب الإرهاب؟ ألم يقل النبي صلى الله عليه وسلم "يأتي على رأس كل مائة سنة من يجدد لكم دينكم"؟ أليس في الحديث متى قر العزم من أصحاب الفكر الإسلامي أن يصلحوا الأحوال وأن يتصدوا للإرهاب، النهج القويم للتصدي لكل آفة يمكن أن تؤدي إلى الإرهاب؟ أليس في الإرهاب نوعاً من التناقض بين معلومات ضبابية يمسك بها أصحابها ويعتبرونها الحقيقة المطلقة من جانب، والابتعاد عن الفهم الصحيح للتعاليم الإسلامية وقوامها على السماحة؟ ألم يأن لهؤلاء أن يدركوا أن المنهج القويم مأخوذ عن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، وأن "خلقه كان القرآن" وأنه شرع للمسلمين ما به النجاة، وأنه وضع التجربة الإسلامية السديدة في ضوء حديث نبوي شريف "خير القرون قرني ثم الذين يلونهم"، فجعل الخيرية مبنية على أساس الاتصال المباشر به صلى الله عليه وسلم أو بصحابته رضوان الله عليهم، أخذاً للتعاليم وممارسة صحيحة للإسلام؟.

9. ومن مظاهر المعالجة الإفادة من علم الهندسة الوراثية، فقد أدى التطور في العلم البيولوجي إلى مداواة الأمراض الوراثية من دائرة الأجنة، فلماذا لا نطرح السؤال بالنسبة إلى الأمراض الثقافية، ومنها داء الإرهاب، هل لها من سبل للمعالجة بالطريقة الموازية بين البيولوجي والثقافي، فتستأصل جذور التلوث من الأصل؟ وذلك عبر الآليات التالية:

\* زرع ثقافة الانفتاح، وهي ثقافة القرآن الكريم التي طبقها المصطفى صلى الله عليه وسلم.

\* الفهم العميق لثقافة القرآن الكريم، وهي تبني القيم الأصيلة ومنها السماحة والمغايرة والرحمة.

\* النهل من أعماق المعرفة المعاصرة وتحويلها إلى النسق الإسلامي.  
\* الاعتزاز بالثقافة الإسلامية لدى المسلمين، وإبراز ما فيها من القيم الأصيلة، والارتقاء بها إلى النموذج الذي ينبغي أن يحذو حذوه كافة البشر.  
10. محاولة في التعريف

يتسنى أن نعرف الإرهاب على نحو تألّفي نختار له العبارات التالية:  
أليس الإرهاب الوثوب إلى العنف أو إلى التهديد بالقوة طمعاً في النتائج التالية:  
\* زرع الهلع في صلب المجتمع.  
\* الوهن المراد زرعه في السلطة القائمة على نحو ديمقراطي  
\* قلب هذه السلطة والتمرد عليها.  
\* العزم على التغييرات السياسية العنيفة.

أليس الإرهاب اليوم هو الظاهرة التي تتشكل بأشكال وحشية مختلفة في ألياتها، وهي تتعدد في أنواعها بمقتضى الحال والوضع. تتمثل الأشكال في العنف وفي الغلو والتطرف، وهي المقولات المؤدية إلى الحرص على تقويض ما هو مستقيم في المجتمعات، وإلى تعدد الأساليب التي تمكن الإرهابيين من تنفيذ مخططاتهم؟.

ماذا نستنتج من هذا المشروع لتعريف الإرهاب؟

إن الإرهاب يجري على النشاط العنيف (القتل - الإجرام - الفتك - إباحة المحرمات - هتك الحرمات...).

1. العلاقة المتينة بين الإرهاب والعنف والقوة: ونريد أن نسوق لطيفة في هذا الصدد، ومؤداها أن للقوة أوجهاً يمكن أن نوجزها في ضربين نقتصر عليهما وهما: المظهر الذهني وهو محمود نظراً لما تفيده القوة الذهنية من طاقة لدى الإنسان على الصبر عند طلب المعنى، والسبل إليه عويصة وتحتاج إلى المثابرة وإلى العزم. والمظهر المادي ونعبر عنه بصيغة زهان (على وزن فعال بضم الفاء) والصيغة تفيد المرض كزكام وصداع وقلاب... وإذ إن القوة قريبة من الشباب، فهي قد تستهويه وقد تغريه، فأية القوتين أنسب إلى الشباب؟ أليس للتعليم والتربية والتنشئة الدور الأساس في الطرق التي تشد الشباب إلى إحدى الطريقتين؟ أليس المجتمع هو الأصل الذي منه تنحدر مقومات الاختيار لدى الشباب؟ أليست الثقافة الاجتماعية هي مناط لاختيارات الشباب؟.

2. ويجدر أن نلتمس السبيل إلى معالجة الإرهاب عبر تحديد مفهوم الثقافة. فلثقافة تعريفات عدة منها ما هو لغوي، ومنها ما هو فلسفي، ومنها ما هو اجتماعي، ومنها ما هو إنساني (أنثروبولوجي)، ومنها ما هو بيولوجي. ومنطلقنا من التعريف الإنساني ومقتضاه أن الثقافة يكمن معناها في كل النشاط المادي والذهني الصادر عن المجموعة إلى الأفراد في ظل بيئة محددة.

3. والثقافة في التعريف الذي اخترنا، تفهم في ظل البعد البيولوجي الذي يستحضر التوازي بين السنن الثقافي والسنن البيولوجي أو بين الخلية الثقافية والخلية البيولوجية، وهي التي تنبع من صميم المجال الجيني أو من رحم الهندسة الوراثية. أليس الأخذ عن منطق العنف أخذاً ثقافياً يجعل القانون الثقافي متحكماً في السلوك الصادر عن الشباب وهم الذين يرثون القانون الثقافي عن المجتمع الذي ينحدرون منه؟ أليس النظر في أحوال البيئة من موازين الاتهام لسلوك الشباب أو من أسباب التبرئة؟ لقد عرجنا على التوازي بين السنن الثقافية والبيولوجي ونحن في ظلال المرجعية البيولوجية، وهو التوازي الذي به نفهم الانحراف في السلوك أو الاستقامة فيه؟ أليس التوارث الجيني من قبيل التوارث الثقافي من حيث الأوجه المتوازية بين الثقافة والهندسة الوراثية، فكيف يهتدي علماء البيولوجيا إلى معالجة الأمراض المتوارثة جينياً على مستوى الأجنة ولا يهتدي علماء الثقافة إلى المعالجة الملائمة للأمراض الثقافية وإن من أشدها على البشرية مرض الإرهاب؟

4. أليس في التعريف إقرار بكون الإرهاب يفاجيء النظم الديمقراطية أو غير الديمقراطية على حد سواء إن لم نقل إنه أقرب من النظم غير الديمقراطية، وإنه يسعى إلى خلخلة التوازن الاجتماعي السائد مهما كان جنسه؟ أليس في العمل الفجائي انتساباً من الإرهاب إلى التحرك التخريبي بعيداً عن كل طرق المقاومة أو النضال؟ ألا يجدر التنبيه إلى الفاصل المعنوي الشديد بين الإرهاب وهو قوة تدفع باطلاً لتقويض بنية متوازنة، والمقاومة وهي حق مشروع للمطالبة باسترجاع ما اغتصب كرهاً؟

5. ألا سبيل إلى التمييز بين النضال والمقاومة والإرهاب على قاعدة الوضوح في الأولى وعلى أساس الغموض في الثاني؟ أليس من طرق الإرهاب الإسراع إلى زرع الرعب بالقتل والنسف والفساد على حين غرة لا ينتظرها المنتظرون فينضاف إلى حدة العنف حدة المباغته، وفيها من أساليب القهر ما يزيد الناس ترويعاً وما يزيد المستهدفين خراباً؟